قراءة في كتاب

ما الذي تفعله روسيا في الشرق الأوسط؟

- ديمتري ترينين : روسيا لا تستطيع ولن تحل محل الولايات المتحدة كقوة خارجية بارزة في المنطقة
- يبدو أن موسكو لم تأخذ درسا من إخفاق تدخلها في الحرب الأفغانية
- التدخل الروسي في المنطقة سوف يسرع من التغييرات التي ستعيد تشكيل النظام الدولي بشكل جوهري خلال العقدين المقبلين
- تدخل موسكو المباشر في سوريا غير الاصطفاف الجيوسياسي في المنطقة

بيانات الكتاب :

عنوان الغلاف : ما الذي تفعله روسيا في الشرق الأوسط؟

المؤلف : الكولونيل دميتري ترينين .

عدد صفحات الكتاب : 144 صفحة من القطع المتوسط.

الناشر : دار «بولايتي».

الطبعة الأولى : ديسمبر 2017 باللغة الإنجليزية .

عرض وتقديم : محمود المنير

نبذة عن المؤلف :

يعد الدكتور ديمتري فيتاليفيتش ترينين، مواليد موسكو عام 1955، مؤرخاً، ومحللاً سياسياً، ومؤلفاً، ويشغل في الوقت الراهن موقع مدير مركز كارينجي موسكو، وهو مركز أبحاث ورابطة إقليمية لمؤسسة كارينجي للسلام الدولي. في عام 1977، تخرج ترينين في المعهد العسكري لوزارة الدفاع في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، الذي يوجد اليوم كجامعة عسكرية تابعة لوزارة الدفاع في الاتحاد الروسي. في عام 1984، حصل ترينين على درجة الدكتوراه في التاريخ من معهد الولايات المتحدة والدراسات الكندية من الأكاديمية السوفييتية للعلوم، والآن الأكاديمية الروسية للعلوم. قبل انضمامه إلى كارينجي في عام 1994، خدم لمدة 21 عاماً في الجيش السوفييتي والقوات البرية الروسية، إلى أن تقاعد في عام 1993 برتبة كولونيل.

يشغل ترينين عضوية المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية (لندن، المملكة المتحدة)، وعضوية المجلس الروسي للشؤون الدولية (موسكو)، والجمعية الروسية للدراسات الدولية (موسكو) والأكاديمية السويدية الملكية للعلوم العسكرية. وهو عضو في مجلس أمناء مدرسة موسكو للدراسات السياسية. ويعمل في مجالس تحرير العديد من المجلات الأكاديمية، كما يساهم في النشر في العديد من وسائل الإعلام الإخبارية البارزة في العالم. ترينين يتحدث الروسية والإنجليزية والألمانية بطلاقة، ويكتب بهذه اللغات، له ما يقارب العشرين كتاباً، من أهم كتبه باللغة الإنجليزية : «لماذا ينبغي أن نخشى روسيا؟ «(2017)»، ما بعد الحرب: قصة أوروبية «(2011)، وشارك في تأليف «آسيا الوسطى: وجهات نظر من واشنطن وموسكو وبكين .(2007) » .

هذا الكتاب

في هذا الكتاب، يحاول المحلل البارز في الشؤون الروسية ديمتري ترينين الخوض في غموض سياسي حول دور روسيا في منطقة الشرق الأوسط لتقديم تحليل واضح ودقيق لتدخل روسيا فيه وتداعياته الإقليمية والعالمية. ويرى المؤلف أن روسيا لا تستطيع ولن تحل محل الولايات المتحدة كقوة خارجية بارزة في المنطقة، بيد أن أعمالها تسرع من التغييرات التي ستعيد تشكيل النظام الدولي بشكل جوهري خلال العقدين المقبلين.

ويطرح المؤلف العديد من الأسئلة، التي يحاول الإجابة عنها في الكتاب، ومن أبرز هذه التساؤلات :

- ما الذي تفعله موسكو في الشرق الأوسط؟
- ما مصالحها والحوافز التي تقف خلف تلك المصالح؟
- كيف يؤثر تدخل روسيا في أجزاء مختلفة من الشرق الأوسط على الأوضاع فيه؟ هل هناك استراتيجية روسية للمنطقة، وإذا كانت موجودة، فما هي؟
- كيف يؤثر النشاط الأخير لروسيا في الشرق الأوسط على باقي العالم، بدءاً من أوروبا؟
- ما هو التوازن بين روسيا منافس الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وروسيا كشريك في القتال ضد «داعش» والإرهاب عموماً؟

محتويات الكتاب

يحتوى الكتاب على أربعة فصول وهي :

- الفصل الأول : التاريخ .
- الفصل الثاني : الحرب .
- الفصل الثالث : الدبلوماسية .
- الفصل الرابع : التجارة .

نقطة مفصلية

يتناول المؤلف في هذا الكتاب الحرب السورية، وعلاقات روسيا مع الدول الأخرى في المنطقة على مستويات مختلفة، ويقدّم الكتاب تلمحيات بسيطة وسطحية حول انخراط روسيا في شؤون الشرق الأوسط.

ويشير المؤلف إلى أن الحرب السورية تعد نقطة مفصلية مهمة في التاريخ المعاصر للشرق الأوسط بذات الأهمية لغزو العراق من قبل الولايات المتحدة في 2003. ويعلق على ذلك بقوله : «لم يحدث في سوريا عواقب على المستوى العالمي، مثل العراق. فالاستيلاء الأمريكي على بغداد وإطاحة صدام حسين من السلطة كانت علامة مسجلة للهيمنة العالمية الأمريكية لما بعد الحرب الباردة. فقد أصبحت رمزاً لقدرة واشنطن على الأخذ والاستيلاء على نحو فردي، وبشكل افتراضي، اتخاذ أي قرار يؤثر على أي واحد في العالم، ويمكن أن يكون ضد رأي كل الأعضاء الآخرين في المجتمع الدولي. كانت الولايات المتحدة في الحقيقة غير مقيدة كفاعل في السياسة الخارجية، على خلاف أي بلد آخر في التاريخ. ثم، حددت سلسلة من التطورات الأخيرة، من الأزمة المالية العالمية في 2008 إلى ما يسمى «الربيع العربي» إلى الحرب السورية نهاية الوضعية الفريدة لها،

وقادت إلى نمط أكثر تشابهاً مع عدد من الدول الكبرى ذات الحجم والسلطة غير المتساوية التي تنافس على النفوذ ولأجل رسم النظام العالمي .

تفسيرات خاطئة

يبدأ المؤلف كتابه بإبداء تخوّفه من التفسيرات الخاطئة العديدة لانخراط روسيا في الشرق الأوسط؛ بسبب سوء التحليل والتقدير، والمعلومات الخاطئة، والتحيز الإعلامي. - حسب وجهة نظره - ، يهدف هذا الكتاب - وفقا للمؤلف- إلى تصحيح هذه الأخطاء من خلال توضيح دور روسيا في المنطقة، ولا يجيب الكتاب مباشرة عن هذا الأمر، لكنه يتعمّق في العلاقات التاريخية بين روسيا ومنطقة الشرق الأوسط منذ زمن القياصرة، وبدلًا من إعطاء الحجج والتفسيرات- يحلّل ترينين الشؤون المشتركة بين الدول، التي تطورت مع مرور الوقت حول تضارب المصالح والاقتصاد والتطورات الإقليمية والدولية.

وبحسب ما يرى المؤلف فإنّ لم تخرج روسيا إلى الشرق الأوسط لأخذ موضع الولايات المتحدة فيها،ويعلق على ذلك بقوله : «موسكو، بالطبع، لم تحل محل واشنطن كلاعب أساسي أو ضابط أمن رئيسي في الشرق الأوسط. ليس لديها مصلحة، ولا مصادر، ولا نية للقيام بذلك الدور. إلا أنها بعد غياب أعلنت أنها تعود إلى المسرح العالمي كلاعب جيوسياسي مستقل كبير. إذا ما استمرت، فإن هذه الحركة سوف تؤثر على توازن القوى في عدد من المناطق». - بحيث تكون ممثّلًا رئيسًا أو شرطيًّا رئيسًا، كما أنّه يَعُدّ الأزمة الأوكرانية عام 2014 والتدخل الروسي في الحرب السورية منذ عام 2015 حالتين أدّت فيهما روسيا ما بعد السوفييتية دورًا بصفتها لاعبًا جيوسياسيًّا مستقلًّا كبيرًا في السياسة العالمية، ويربط المؤلف موقف روسيا من الحرب السورية باستياء موسكو

من الربيع العربي، ويؤكّد أن الكرملين لا يدعم الحركات الثورية في دول الشرق الأوسط، فبعد رؤيتها معمر القذافي الذي أطاح به التحالف الغربي، كرّست موسكو جهودها لمنع سوريا من معاناة المصير نفسه، ويمكن الاستدلال على ذلك بالخوف من الإرهاب السني المتطرف- حسب وجهة نظر المؤلف - ، وآثاره المحتملة على الأقلية السنية في روسيا، وهي المسوِّغات التي يسوقها المؤلف لتدخل موسكو في الحرب.

روما الثالثة والتاريخ

يتحدث المؤلف في الفصل الأول - وعنوانه "التاريخ"- عن مشاركات روسيا الأولى مع دول الشرق الأوسط اليوم، ويعيد تاريخ التفاعل بين الدول إلى الزواج بين دوق موسكو وابنة أخ الإمبراطور البيزنطي، ومن ثَمّ اكتسبت موسكو لقب "روما الثالثة". ووفقًا لترينين فإنّ غزو القسطنطينية وزوال الإمبراطورية البيزنطية حثّا روسيا على السعي للوصول إلى البحر الأسود، ثم إلى حوض بحر قزوين، وقد استمرّ هذا المسار مع الحروب مع الإمبراطورية العثمانية، واتفاقات التقسيم مع القوى الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى، وتحالفات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ودعم بلدان الشرق الأوسط الناشئة حديثًا.

ويقدم المؤلف تحليلاً للعديد من القضايا في مسار الأحداث الرئيسة، مثل الحروب العربية الإسرائيلية، والثورة الإيرانية، والحرب الأفغانية، وحلّ الاتحاد السوفياتي، وهجمات 11 سبتمبر، والربيع العربي، وكذلك الأزمة السورية من منظور الكرملين. ويشير هذا الفصل من الكتاب إلى جميع نقاط التحول الرئيسة تقريبًا في تاريخ الشرق الأوسط؛ ومع ذلك، لا يقدّم المؤلف هذه القضايا بطريقة مفصّلة جدًّا، كما يعطي هذا الفصل من الكتاب مقدّمة مثالية لعلاقات روسيا في الشرق الأوسط.

وتفصيلاً عن العودة الروسية يقول المؤلف : «بعد أن عطلت روسيا نظام ما بعد الحرب الباردة الذي هيمنت عليه الولايات المتحدة خلال نزاع أوكرانيا في 2014، تجاوزت بحكم الأمر الواقع الاحتكار الأمريكي في استخدام القوة عالمياً. في 2015، تدخلت بشكل عسكري في الحرب السورية لدعم حكومة دمشق. العديد من المثقفين سخروا من هذا التدخل، كما فعلت إدارة أوباما في واشنطن، والتي تكهنت بثقة أن تدخل روسيا في سوريا هو دخول في «مستنقع». ومع ذلك، بنهاية 2016، لم تستطع روسيا وحلفاؤها على الأرض من تحقيق استقرار لنظام بشار الأسد، ومنع حدوث الانهيار الكامل للدولة السورية فقط، بل أيضاً فرضت ما يكفي من الضغط على المعارضة السورية وداعميها لإطلاق عملية وقف إطلاق النار والمضي في حوار سياسي حول مستقبل البلاد.«

ويشير المؤلف إلى أن تدخل موسكو المباشر قد غير الاصطفاف الجيوسياسي في المنطقة، قائلاً «روسيا شكلت ائتلافاً عسكرياً مع سوريا، إيران، حزب الله، والعراق.. هذا البلد الذي حكمته الولايات المتحدة بحكم الأمر الواقع لمدة عقد بعد الغزو والاحتلال في 2003.

الدوافع الروسية

وفي الفصل الثاني – الذى يحمل عنوان "الحرب"- يتناول المؤلف الحرب السورية، ودافعَ روسيا في المشاركةفيها . وبحسب المؤلف فإنّ التدخل الروسي في الأزمات السورية يرمز إلى عودتها إلى الساحة العالمية بوصفها دولة رئيسة في صنع القرار، ويؤكد المؤلف حسابات إدارة بوتين حول نطاق الحرب وقيودها، والدروس التي تعلمتها روسيا من الحرب الأفغانية.

ويعرض المؤلف من وجهة نظره في هذا الفصل دوافع روسيا في الوقوف إلى جانب نظام الأسد، وإستراتيجية بوتين للحرب، وملخصًا للنزاعات العسكرية بين الأطراف المتحاربة، والعمليات الجوية، والتحالفات، وحسابات اللاعبين الآخرين في المنطقة، مثل الولايات المتحدة وإيران وتركيا وإسرائيل والمملكة العربية السعودية ودول الخليج.

و يركز الفصل الثاني على العمليات العسكرية الروسية المستمرة في سوريا، والتي بدأت في 2015، ونتائجها السياسية. وفي أشكال عديدة، سواء من الناحية العملياتية أو التقنية، يشكل هذا التدخل العسكري طريقة جديدة في استخدام القوة العسكرية الروسية، ليس فقط مقارنة مع العمليات السوفييتية في أوروبا وآسيا زمن الحرب العالمية الثانية، بل أيضاً مع التدخلات الحديثة في أفغانستان والشيشان.

ثم يقدّم المؤلف ملاحظتين مهمّتين: أُولاهما أن موسكو لم تنشر -بعد أخذها درسًا من إخفاق تدخلها في الحرب الأفغانية وهو بلد أجنبي مسلم- سوى القوات الجوية والبحرية في الصراع السوري. وثانيتهما أن الدخول في الحرب يمنح روسيا فرصة لاختبار أسلحتها، وإجراء مناورات عسكرية، ومن ثَمّ تعزيز أسلحتها ومصداقيتها بوصفها حليفًا.

الدور الروسي في المنطقة

في الفصل الثالث -وعنوانه "الدبلوماسية"- يتناول المؤلف الكيفية التي تهدف روسيا من خلالها إلى الاضطلاع بدور دبلوماسي في المنطقة، حيث يستغل الكرملين الخلافات بين الدول للحفاظ على مصالحه بالمنطقة، وثمة ملاحظة يؤكد عليها المؤلف ويبثها في سياق عرضه للدبلوماسية الروسية في منطقة الشرق الأوسط في كل فصول الكتاب وهي أن روسيا تخلّت عن السياسة الخارجية الحادّة – حسب وجهة نظره - ، حيث لا يمكن لدولة أن تكون سوى صديقة أو عدوّة، فلم تعد روسيا تتبع سياسة الدعم غير

المشروط أو الاعتراض الكامل على الدول كما فعلت في أيام الحرب الباردة، بل بدلًا من ذلك، تنخرط موسكو في علاقات مع أطراف متضاربة في الوقت نفسه من دون تفضيل دولة على أخرى، ويسوق المؤلف العديد من الأمثلة التي تلعب فيها روسيا بدبلوماسية، مثل الصراع العربي الإسرائيلي، وإسرائيل- سوريا، وإيران- إسرائيل، والعلاقات الإيرانية- التركية، وكذلك ليبيا ومصر، ودول الخليج تحديدًا في الحرب الباردة، وبعد الربيع العربي.

وفيما يتعلق بالدور الروسي في الانقسامات الكبيرة في المنطقة يقول: «استطاعت الدبلوماسية الروسية أيضاً التفاوض على عدد من الانقسامات التي بدت أنه لا يمكن حلها في الشرق الأوسط. فقد استطاعت روسيا أن تبقي على علاقات تعاونية جيدة مع «الإسرائيليين» والفلسطينيين؛ «إسرائيل» وإيران؛ إيران والمملكة العربية السعودية (حتى إنها قامت بمناقشة مسائل خفض إنتاج النفط بين الدولتين)؛ تركيا والكرد، وبذات الطريقة الحكومات المتخاصمة في طرابلس وطبرق في ليبيا، الانقسامات الطائفية-السياسية في لبنان. ليس هناك من لاعب رئيسي في الشرق الأوسط - ضمناً حزب الله وحماس - ليس لموسكو خط مفتوح وحوار حي معه .»

ويعلق على ذلك: «هذا الأمر مدهش بالنسبة لدولة اعتادت زمن الاتحاد السوفييتي أن تتخذ مواقف إيديولوجية صارمة، وكان عليها أن تتقهقر من المنطقة في إذلال بعد الحرب الأفغانية الخاسرة، وتفكك الاتحاد السوفييتي نفسه الذي تبعه حينها، في وقت قصير، نزاع دموي في الشيشان.»

حسابات التجارة

يتناول المؤلف في الفصل الرابع موضوع "التجارة"، وهو الفصل الأخير، ويشرح فيه سياسات موسكو في الشرق الأوسط في أوسع سياق لسياستها الخارجية والعلاقات مع الولايات المتحدة، وإلى مدى أقل مع أوروبا. حيث يصف الروس بأنهم يبتعدون عن السياسات الغربية والأمريكية، وذلك من منذ الغزو الأمريكي للعراق إلى «الربيع العربي» والتدخل الغربي في ليبيا وسوريا. ثم يقدم صورة للتعاون الروسي مع الصين والهند، وأهمية مبدأ «أوراسيا الكبرى» بالنسبة للسياسة الخارجية العملية لموسكو، والدور المحتمل لمنظمة شنغهاي للتعاون. و السؤال الأساسي الذي يتم معالجته هنا هو كيف تسعى موسكو، عبر تحركاتها في الشرق الأوسط إلى تغيير النظام العالمي؟ ويقول في النهاية: «بالتالي قصة روسيا في الشرق الأوسط ليست عن روسيا أو الشرق الأوسط فقط».

كما يقدّم المؤلف حسابًا للإمكانات التجارية لروسيا، حيث تُعَدّ الأسلحة، والطاقة النووية والهيدروكربونية، والحبوب، والسياحة- من بين المنتجات والمجالات الروسية القابلة للتصدير. ويشير ترينين إلى أن روسيا تتبوّأ المرتبة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة في توريد الأسلحة، إذ زودّت روسيا دول المنطقة بالسلاح منذ سنوات الحرب الباردة، بينما كانت تدعم الدول العربية المعادية للغرب، مثل مصر وسوريا.

وحتى بعد الحرب الباردة استمرّت روسيا في تجارة الأسلحة مع كل دول المنطقة تقريبًا باستثناء إسرائيل. أمّا في تجارة الطاقة الهيدروكربونية فلا يوجد تبادل؛ بسبب موارد الطاقة الوفيرة في الشرق الأوسط، ومن القطاعات الأخرى التي تتعامل فيها روسيا مع دول المنطقة صادرات الحبوب وصناعة السياحة.

وختامًا فإن المؤلف قدم في كتابه تحليلاً للعلاقة غير المتماثلة بين روسيا والدول الإقليمية، وتفسير الدوافع الحقيقية – حسب وجهة نظره - لانخراط روسيا في الشرق الأوسط، حيث قدم المؤلف الدلائل المنطقية لمساعي روسيا لربط نفسها بالمنطقة، من خلال تدخلها لحلّ النزاعات، تفعيل أدواتها الدبلوماسية، وتمديد علاقاتها التجارية، وتسويق مبيعات الأسلحة، والترويج للسياحة في روسيا .